

ولأن عبد القاهر لم يمتلك مهبة التنظيم الدقيق ؛ احتاج الأمر بعده إلى عدة مراجعات بالشرح أحياناً ، وبالتنظيم والتبويب أحياناً أخرى ، وبالتطبيق أحياناً ثالثة ، لكن سوء الفهم حول مباحثه إلى قضايا بلاغية ، تقوم على التحديد والتقسيم ، وتجريد القضايا ، مما جعل البحث البلاغي يفرق في شكلية مفرطة ، وأخذ الجمال التعبيري طبيعة مقننة ، وكان « مفتاح العلوم » قمة هذا الاتجاه ، لسوء الحظ لم يلق عبد القاهر من الاهتمام ما لقيه (المفتاح) ، حتى إن حركة التأليف أصبحت دائرة حوله ، شرحاً وتلخيصاً .

وعلى الرغم من وجود محاولات - في المشرق والمغرب العربي - للإفلات من دائرة (المفتاح) ، كـ « الطراز » للعلوي ، و« منهاج البلغاء » لحازم القرطاجني ، إلا أن السيادة النهائية ظلت للسكاكي وأتباعه . والملاحظ أن الحركة البلاغية والنقدية قد تمحورت حول قطبين رئيسيين هما : الإفراد والتركيب ، والعلاقة الجدلية القائمة بينهما ، سواء في التنظير أو التطبيق .

وكان المنطلق الأساسي لهما في الدرس القديم هو رصد الصواب والخطأ على حسب ما قال به اللغويون والنحاة ، ثم تجاوز هذه الدائرة إلى رصد العلاقات التي يخلقها النحو بين الكلمات ، أو بين الجمل ، وهو في ذلك إما يصف ما هو كائن في بنية الكلام ، وإما يضع المعايير والقوانين التي تضبط هذه البنية ، أي أن الدرس القديم أصبح متصلاً بتكوين الأسلوب في